# سفارة أندلســـية
## إلى ملك النورمانيين
### فى القرن الثالث الهجرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

---

لبث عرب الأندلس منذ الفتح زهاء قرنين فى مأمن من الغزوات الخارجية ، لا تزعجهم سوى الحروب والمعارك الداخلية ، ولم تشعر الأندلس المسلمة بخطر الغزو الخارجى فى تلك الفترة إلا من ناحية واحدة ، هى ناحية مملكة الفرنج التى بلغت ذروة القوة والبأس فى عصر عاهلها كارل الأكبر ( شارلمان ) ، والتى استطاعت من قبل أن تستخلص من يد العرب رباط الثغر وكل أملاكهم فى لانجدوك وما وراء جبال البرنيه ، وأن تغزو اسبانيا المسلمة من الشمال أكثر من مرة ؛ ولكن هذا الخطر الداهم لم يلبث أن خبا عقب انحلال المملكة الفرنجية وتوطد الدولة الأموية فى الأندلس

بيد أن الأندلس لم تلبث أن عرفت خطراً آخر لم تكن لتفطن اليه أو تتحوط لرده ؛ ذلك هو خطر الغزوات البحرية النورمانيـة ؛ وقد ظهر هذا الخطر فجأة حينما ظهرت سفن النورمانيين فى مياه الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٣٠ ﻫ (٨٤٣ م) فى عصر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ، وعاثت فى ثغور الأندلس ، ووصلت إلى أشبيلية ، واقتحم الغزاة بسائطها بالنار والسيف ؛ ولم يك لعرب الأندلس يومئذ معرفة بتلك الأمة البحرية التى جاءت من أقاصى الشمال غازية فى أقاصى الجنوب ، فعرفوها وآنسوا خطرها ومنعتها ؛ وعرفوها عندئذ باسم « المجوس » ؛ ذلك لأن النورمانيين كانوا يومئذ أمة وثنيـة تعبد النار والكواكب والعناصر ، ثم عرفوها فيما بعـد باسم « المجوس الأردمانيين » ، أعنى النورمانيين ؛ وكانت الأندلس حتى ذلك الحين تعنى بأسباب الدفاع الداخلية والبرية ، ولا تعنى كثيراً بأمر الأسطول أو التحصينات البحرية ، فلما شهدت جرأة أولئك الغزاة المجهولين ، وشدة عيثهم بشواطئها وثغورها ، عنيت بأمر الأسطول والثغور ، ولم يأت عصر عبد الرحمن الناصر حتى كان للأندلس أسطول فخم يسيطر على تلك المياه ، ويحمى ثغور الأندلس من كل غزو واعتداء

وقد ترددت حملات النورمانيين على شواطئ الأندلس مراراً ، فى عصر عبد الرحمن بن الحكم ، كما قدمنا ، ثم فى عصر ولده محمد (٢٤٥ ﻫ ـ ٨٥٩ م) ، ثم بعد ذلك بنحو قرن فى عصر الحكم المستنصر (٣٥٥ ﻫ ـ ٩٦٦ م ) ، ثم فى عهد الطوائف (٤٥٧ ﻫ ـ ١٠٦٥ م) ، وكانت فى كل مرة تبث الذعر والروع والخراب أينما حلت ، بيد أنها كانت ترد على أعقابها بعد معارك برية وبحرية طاحنة ؛ وكانت تقنع دائماً بما تحصل من الغنائم والسبى ، ولا تمكن من البقاء أو الاستقرار وسير هذه الغزوات البحرية مشهورة فى الروايات الاسلامية والنصرانية ، وليس من موضوعنا أن نعنى بتفاصيلها ، وإنما نعنى هنا بحادث دبلوماسى شهير ، كان من بعض آثار هذه الغزوات ، وهو من الحوادث الدبلوماسية الفريدة فى علائق الشرق والغرب والاسلام والنصرانية

---

الدواء السابع : أن يُضربَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يُصَكُّ بها (١) واقعةً منه حيث تقع من رأسه وصدره وظهره وأطرافه ، حتى يتهشم عظمه ، وينقصف صلبه ، وينشدخ رأسه وينفرى جلده ؛ ثم تُطْلى جراحُه وكُسوره بالأطلية والمراهم وتوضع له الأضمدة والعصائب ، ويترك حتى يبرأ على ذلك أعرج متخلعاً مبعثرَ الخلق مكسورَ الأعلى والأسفل ، فان فى ذلك شفاءَه التام من داء الحب إن شاء الله

قلنا : فان لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلة الحب ؟

قال : إن لم يشفه ذلك فالدواءُ الثامن

الدواء الثامن : أن يعاد علاجه بالدواء السابع . . . . . .

( لها بقية )

(١) القناة هى العصا الغليظة التى يقال لها « الشومة » . والصك خاص فى ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة فى هذا العلاج ... فقد جاز استعمال الصك فى الجسم كله كما يليت

الى الفاضل البرى بصور : لا وقت لى فأبحث وأجيبك عن كل هـذه المسائل ، ولكنى سأعهد فى ذلك الى بعض أصحابنا ممن أكلوا الكتب وأكلتهم ، وقد انتظرت فانتظر أيضا

الرافعى

قام النورمانيون بغزوتهم البحرية الأولى لشواطئ الأندلس فى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، وعاثوا فى بسائط أشبونه وأشبيلية ولبلة ؛ ولم يستطع الأندلسيون رد أولئك الغزاة الشقر إلا بعد جهود جهيدة ومعارك طاحنة ، وبعد أن رأوا من جرأتهم وشجاعتهم وشدة فتكهم ما يؤذن بانتمائهم لأمة قوية عظيمة ؛ عندئذ رأى أمير الأندلس عبد الرحمن ابن الحكم أن يسبر غور هذه الأمة المجهولة ، وأن يسعى إلى مهادنتها وعقد أواصر الصداقة معها ، فى نفس الوقت الذى يعنى فيه بتقوية الأسطول وتحصين الثغور ، فانتهز فرصة مقدم الرسل النورمانيين إلى قرطبة لعقد الصلح بعد هزيمة الغزاة وجلائهم عن الثغور الأندلسية ، وقرر أن يوفد معهم إلى ملك النورمانيين سفارة يؤكد بها المودة والصداقة

واختار أمير الأندلس لسفارته رجلا جعلته صفاته الخاصة خير من يستطيع الاضطلاع بتلك المهمة هو يحيى بن الحكم المعروف بالغزال ؛ وكان الغزال شاعراً رقيقاً من أهل جيان ، وكان يومئذ من أكابر رجال الدولة والبلاط ، يصطفيه عبد الرحمن ويؤثره برعايته وتقديره لما كان يتمتع به من خلال وكفايات خاصة فى الادارة والسياسة . وكان عبد الرحمن قد اختاره قبل ذلك ببضعة أعوام ليكون بسفيره لدى قيصر قسطنطينية الامبراطور نيوفيلوس ؛ وكان الامبراطور قد بعث اليه سفارة وهدية فخمة ليخطب وده ومحالفته ويرغبه فى ملك أجداده فى المشرق حقداً منه على المأمون والمعتصم ؛ فرحب عبد الرحمن برسل الامبراطور ، وبعث إليه يحيى الغزال بهدية فخمة ( ٢٢٥ هـ — ٨٣٦ م ) فأدى الغزال سفارته ببراعة ، واستطاع أن يخلب لباب الامبراطور وبطانته بذلاقته وحسن بيانه ورقة شمائله ؛ واستمر عبد الرحمن بعد ذلك يسند اليه مختلف المهام الدقيقة فيؤديها بكياسة وبراعة ؛ وكان الغزال فى الواقع رجلا خلابا وسيم الطلعة — ومن ثم سمى بالغزال — يتمتع بصفات السياسى البارع وخلاله ومؤثراته ، ويستخدمها دائما بفطنة ونجاح

وقد انتهت الينا عن هذه السفارة الفريدة رواية اسلامية ضافية لكاتب أندلسى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى وهو أبو الخطاب بن دحية البلنسى فى كتاب له يسمى « المطرب فى أشعار أهل المغرب » [1] ؛ وفيه يسرد تفاصيل رحلة الغزال إلى بلاد النورمانيين ، ويورد لنا طرفا من خلاله وشيئاً من نظمه ، بيد أن هذه الرواية الضافية تعنى بالناحية الشخصية والأدبية أكثر مما تعنى بالتحقيق التاريخى ، ومن ثم فان كثيراً من الغموض يحيق بالمكان وبالظروف التى وقعت فيها هذه السفارة ويترك المجال واسعاً لمختلف الفروض

تقول الرواية إن يحيى الغزال ومساعده يحيى بن حبيب خرجا من مياه الأندلس الجنوبية فى سفينة أندلسية خاصة أعدت لهما ، وسارت بهما إلى جانب سفينة الرسل النورمانيين ؛ واتجهت السفينتان نحو الغرب حتى خرجتا إلى المحيط ؛ وشهد السفير المسلم من عصف الرياح وروعة الموج أهوالاً ؛ وقد ترك لنا الغزال فى وصفها شعراً يقول فيه :

قال لى يحيى وصرنا ... بين موج كالجبال
وتولتنا رياح ... من دبور وشمال
شقت القلعين وانبـ ... ـت عرى تلك الحبال
وتعطى ملك المو ... ت الينا عن حيال
فرأينا الموت رأى العيـ ... ـن حالا بعد حال

ولكن الركب وصل سالما إلى « بلاد المجوس » بعد رحلة شاقة مروعة ؛ وسار الغزال وزميله إلى مستقر ملك النورمانيين . أما عن مستقر مملكة النورمانيين ( المجوس ) فتقول لنا الرواية مايأتى : « وهى جزيرة عظيمة فى البحر المحيط فيها مياه مطردة ، وجنات ، وبينها وبين البر ثلث مجار ، وهى ثلثمائة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ؛ وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار أهلها كلهم مجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية [2] »

وهنا موضع الغموض والحدس . إذ ما هو ذلك القطر الذى تعنيه الرواية الاسلامية ، والذى كان مستقرا لملك النورمانيين وقت مقدم الغزال ؟ لقد كان للفيكنج أو النورمانيين

(١) مازال هذا الكتاب مخطوطا ، وتوجد منه نسخة فى المتحف البريطانى وقد نقل الينا دوزى رواية ابن دحية عن سفارة الغزال فى كتابه Recherches, II. App. XXX IV

(٢) راجع رواية ابن دحية فى كتاب دوزى المشار اليه

يومئذ ملك فى الشمال ، فى دانمارکه ، وكان سلطانهم منذ أوائل القرن الثامن يشمل دانمارکه وقسما من اسكندناوه ، وألمانيا الشمالية حتى فريزيا ؛ ويلوح لنا من تأمل الوصف الذى تقدمه لنا الرواية الاسلامية عن رحلة الغزال فى بحار خطرة مروعة ، وعن طبيعية القطر الجزرية ، أن هذا القطر هو الدانمارکه ، فهو شبه جزيرة يحيط بها عدد كبير من الجزائر ؛ ومن هذه الجزائر كانت تخرج حملات النورمانيين الغازية الى البحار الغربية والجنوبية . وكان يجلس على عرش النورمانيين فى ذلك الوقت ( نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م ) ملك يسمى « هوريك » ، وكان النورمانيون يومئذ أحداثا فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الاسلامية ، لأنهم بدأوا باعتناقها قبل ذلك بنحو عشرين عاما فقط . بيد أن هناك احتمالاً آخر يمكن الأخذ به ، وهو أن القطر الذى زاره السفير الاسلامى ليؤدى رسالته الى زعيم الفيكنج ربما كان جزيرة ارلندة التى تنطبق طبيعتها وموقعها على أوصاف الرواية الاسلامية ، وكان الفيكنج قد فتحوها قبل ذلك بأعوام ( ٨٤٠ م ) واستقروا فى شمالها ، واتخذها زعيمهم « تورجيس » أو « ترجستر » قاعدة لملكه

وعلى أى حال فقد لقى السفير المسلم من ملك النورمانيين كل ترحاب وعطف ، وأفرد لأقامته وزملائه منزلا حسناً ؛ وتصف لنا الرواية بعد ذلك كيف استقبل الملك الغزال ، وكيف أعجب بجرأته وذلاقته ولباقته ، وكيف قدم اليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال مثل هذا الاعجاب والعطف فى البلاط النورمانى كله . ثم تقدم لنا الرواية تفاصيل شائقة عن صلات الغزال بملكة النورمانيين « نود » ومواقفه منها ، وقد رآها الغزال لأول مرة فراعه حسنها ، وصرح أمامها بأنه لم ير فى حياته مثل هذا الحسن الشعرى الفائق مع كثرة ما شاهد من النساء الحسان فى مختلف القصور ؛ وكان الغزال يومئذ قد جاوز الخمسين من عمره ولكنه كان لا يزال جذاباً وسيم الطلعة ؛ فأعجبت الأميرة بروائه وظرفه وحسن بيانه ، وكثيراً ما كانت تستدعيه للتمتع بحديثه الساحر ؛ وكان الغزال من جانبه يهرع الى مجلسها ويكثر من زيارتها حتى حذره أصحابه من ذلك ، ولكنه لم يعبأ بذلك لما يلقاه منها من التشجيع والعطف ؛ وتقص الرواية علينا بعض مواقفه ومداعباته مع تلك الأميرة الحسناء ؛ ومن ذلك قوله ذات يوم فى مجلسها يتغنى بحسنها :

كلفت يا قلبى هوى متعباً ... غالبت فيه الضيغم الأغلبا
انى تعلقت مجوسية ... تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله فى حيث لا ... يلقى إليه ذاهب مذهبا
يا نود يا رود الشباب التى ... تطلع من أزرارها الكوكبا

وقوله ذات يوم وقد أمرته الأميرة بأن يخضب شعره الأشيب ففعل ، واستحسنت خضابه :

بكرت تحسن لى سواد خضابى ... فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف ... إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا ... فيسير ما سترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فانما ... هو زهرة الأفهام والألباب
فلدى ما تهوين ، ماشأن الصبى ... وطلاقة الأخلاق والآداب

وعاد الغزال الى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ومعه كتاب من ملك النورمانيين الى عبد الرحمن بن الحكم ؛ وكان عوده عن طريق شنت ياقوب ثغر جليقية . وقد أدى الغزال سفارته خير الأداء بلا ريب ، ولكن ماذا كان موضوع هذه السفارة وغايتها الحقيقية ؟ هذا ما لم تفصح عنه الرواية ، وإن كنا نعتقد أنها كانت سفارة مودة وصداقة فقط

وعاش الغزال بعد ذلك أعواماً طويلة ، وتوفى بعد الخمسين ومائتين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقد أربى على الثمانين ؛ وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى ميدان الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير [1]

محمد عبد الله عنان

(١) راجع رواية ابن دحية المتقدمة الذكر فى دوزى Recherches, II, App. 34 — وراجع أيضاً نفح الطيب للمقرى حيث يورد ترجمة الغزال وطرفا من شعره ( مصر ) ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها